سورة الأعراف

﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١١٥-١١٦]

أعتقد أن هنا أمراً كثيراً ما يخفى عن الأنظار، وهو أن السحر كان من أهم الأمور التي كان الناس يهتمون بها، وهذا ما نفهمه من اجتماع الناس لرؤية الألعاب السحرية في ميدان في يوم العيد. وقد أراد موسى عليه السلام للسحرة أن يكونوا هم البادئين باظهار سحرهم. وعندما ابطل موسى سحر هؤلاء ذُهل الناس وفي مقدمتهم السحرة الذين أدركوا -وهم الذين بلغوا الذروة في السحر- أن ما جاء به موسى لم يكن سحراً فآمنوا على الرغم من فرعون وسطوته. وقدم السحرة بايمانهم الفوري هذا خدمة كبرى، لأن الناس -الذين كانوا يثقون بهؤلاء السحرة وأخذوا أماكنهم في صفهم- آمنوا بايمان هؤلاء السحرة.

إذن فقد كان هناك فئة من المشعوذين الذين أسسوا عالمهم على الكذب وعلى خداع الناس وكان هناك حكم فردي مطلق يجبرهم على سلوك هذا الطريق، ثم هناك الجماهير المساقة على الدوام حسب أهواء هاتين الطبقتين، لذا فعندما بدت حبالهم وعصيهم وكأنها حيات تسعى[1] فترة قصيرة، إذا

(١) سواءٌ أكان ذلك الأمر صورة خيالية بدت للناس نتيجة سحر أعينهم، أم أن السحرة قاموا بملء أغلفة

بعصا يابسة تنقلب إلى حية وتبتلع كل ألاعيب السحرة. أما الجماهير التي كانت تتابع بكل فضول وذهول ما يحدث أمامها فقد أفاقوا ولم يكن أمامهم إلا أن يقولوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ١٢١) جنباً إلى جنب مع رموز الباطل الذين كانوا أول من هتفوا بهذا الاعتراف الكبير بكل وضوح ودون أي تردد، بعد أن انفتحت قلوبهم فجأة للنور الآتي اليهم من وراء الآفاق...

يكرر القرآن هـــذا المشهد في عدة مواضع وبأســـاليب مختلفة وملائمة للسياق، وهو بذلك يسوق لنـــا العبر من خلال فرجة بـــاب التاريخ الذي يكرر نفسه... يعرض هذه العبر وكل واحد منا يستطيع أن يأخذ منها حسب قابلياته وسعة أفقه.

جلود وغيرها بالزئبق، وبدت للانسان من انعكاس أشعة الشمس عليها ومن حرارتها انها تتحرك وتسعى فالأمر لا يهم كثيراً.

obeikandl.com

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠]

هناك حقيقة واقعية وهي أن بعض المؤمنين يدخلون أحياناً في دائرة الشرك وإن لم يكن هذا الدخول بقطعية أهل الشرك. وكما تبين هذه الآية الكريمة فإن الحب المفرط للأولاد درب من دروب الشرك. فبدلاً من النظر إلى أولادنا وأحفادنا بأنهم نعمة ولطف وأمانة من قبل الله مودعة في رقابنا، ننظر إليهم وكأننا مالكون لهم، بل يقوم البعض بترك الصلاة والعبادة بسببهم فكأن حبهم للأولاد أكثر من حبهم لله تعالى. وبدلاً من حبنا للأولاد من أجل الله، نقوم بحبهم دون التفكير في الله "إن كان هذا التعبير جائزاً" ونحس بمستوى من العلاقة ومن العاطفة والحب يؤدي إلى درجة شرك ضمني دون قصد. إذن يجب التصرف حسب قاعدة "لا يسع قلب واحد حبين".[1] ونكون على أهبة دائمة ضد الشرك. طبعاً إن هذا سهل جداً من ناحية القول ومن ناحية مجرد الكلام، ولكن تطبيقه في الحياة أصعب مما يبدو. ومع ذلك فيجب أن نفعل كل ما في وسعنا للتطهر من الشرك، وبذل كل عناية لعدم الإقتراب من أماكن تشم على البعد منها رائحة الشرك. فإن فعلنا هذا يأتي دعاء الرسول ﷺ كوصفة مهمة وضرورية "اللهم

(١) أو حسب ما جاء في القرآن ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ٤).

إني أعوذ بك من أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم".[1]

ويمكن النظر في موضوع حب الأولاد من زاوية مختلفة: قد لا يؤاخذ الإنسان في المسائل العاطفية. غير أنه مكلف من الناحية الدينية بتعديل مشاعره الفطرية. فمثلاً قد يكون أحدهم نـــهما في الأكل والشرب وقد يتمنى عيش حياة ارستقراطية، ويظهر رغبة وحرصاً شديدين في هذا الأمر، فيتصرف دون أن يحسب حساباً لعواقب هذا السلوك. لأن الإنسان بفطرته خلق ضعيفاً أمام رغباته وبخيلا وعجولاً. فهذا موجود في فطرته. كما أنه يحمل بين جنباته بجانب مشاعر الحقد والكره والعداء مشاعر محبة ومشاعر إنسانية. وهذه الخصال بمثابة ممرين يؤديان إلى الشر وإلى الخير. لذا كان عليه القيام بسد المنافذ والأبواب المفتوحة في ماهيته على الشر، وأن يسيطر على مشاعره العدوانية بأفكاره وبمشاعره الدينية، وهذا ما ندعوه بالتعبير الديني "إكتساب الفطرة الثانية"، لكي يصل إلى الكمال المقدر له. أي أن يجعل من فطرته –التي يفتح لها الباب على كل شيء– باباً واحداً فقط مؤدياً به إلى الله تعالى وتقوية صلته به.

وحب الأولاد من هذا القبيل، فهو موجود في فطرة الإنسان، ولولا هذا الحب لما تلقى الأطفال أي رعاية، ولما اهتم احد بهم وبتربيتهم وتعليمهم. ولما تقدم لا البلد ولا الإنسانية. نرى حوالينا العديد من الأولاد الشقاة والعصاة، ومع ذلك يبقون في رعاية آبائهم وأمهاتهم. ولولا هذا الحب الموجود في فطرة الإنسان نحو الأولاد لامتلأت الشوارع بالاولاد المطرودين من البيوت. ولكن يجب ملاحظة ضرورة تعديل القلوب من ناحية هذه العاطفة –كغيرها من العواطف الأخرى– بعاطفة حب الله تعالى لكي يتم الوصول إلى الإستقامة المطلوبة. لأن الإرتباط بالله إن لم يكن هو محور الحياة فلا مناص من الإنحراف. لذا وجب نمو حب الله تعالى وتجذره في كل قلب.

---

(١) مسند أبي يعلى ١/٦٠؛ الأدب المفرد للبخاري ١/٢٥٠.

وهذا مرتبط برياضة وبتدريب معينين. أي إن قال أي إنسان لم يعرف في حياته أي رياضة روحية "إنني أهب مالي وولدي في سبيلك يارب!" كان هذا أحياناً رياءً وأحياناً كذباً. لأن من الضروري قبل هذا طرد الخصال القبيحة من الروح واستنبات الخصال الحميدة خصلة خصلة مكانها لكي تتشرب اعماق نفوسنا بالاسلام ويصبح قطعة من طبيعتنا ومن فطرتنا فتكون تصرفاتنا الجميلة طبيعية آنذاك. وإلا لما استطعنا التخلص من الثنائية في التفكير ومن الثنائية في العيش وفي التصرف.

والآية تنتقل من آدم عليه السلام إلى بني آدم فرداً فرداً وجماعة جماعة، وتمتد كسلسلة طويلة حيث تظهر ضمن وحدتها العامة وضمن نوعها تمايزاً واختلافاً، وغنى في محتواها. هذا الإنسان الذي إن أفلح في بلوغ الهدف سبق وبزّ بثوابه الملائكة، وإن أخلد إلى الأرض كان أدنى من الشيطان الملعون وأحقر. وعندما تذكر الآية هذه الحلقات الصالحة أو الفاسدة من هذه السلسلة للسلالة الإنسانية تستعمل أسلوباً معيناً في شرح هيئتها العامة لذا عندما ندرك هذا لا نحتاج إلى طرح سؤال: من هذه الأزواج؟ أهي آدم عليه السلام وزوجته حواء؟ أم قصي وزوجته من قريش؟ أم غيرهم؟

إن هذا الإنسان بروحه واستعداداته ومحتواه وخلقه وغناه مخلوق مع زوجه من نفس واحدة نستطيع أن نطلق عليها اسم "الفرد الحقيقي"، ثم خلق من هذا الإنسان –أو من جنسه– مخلوقات أخرى، بشكل أزواج. أي أنه خلق زوج الإنسان وشكّله من العناصر الرئيسة لماهيته، وجعل أحدهما محتاجاً للآخر. ومتمماً له، ويجد الطمأنينة والراحة معه، يفهم أحدهما الآخر ويشعر به ويستطيع أن يبثه ما يعتلج في قلبه... أي كل منهما وجه لوحدة واحدة من الخلق، فيتم التذكير هنا بوحدة الخلق، ويتم التذكير باننا كنا مظهراً للخلق ونعمته، أي عندما تمتليء قلوبنا بمشاعر الشكر تمتليء كذلك عقولنا وإدراكنا بأحاسيس الحمد أيضاً.

سورة الأنفال

﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال: ٤٢]

والحقيقة أنه حسب آية ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ (يونس: ٩٩) كان من الممكن أن يكون هناك نظام معين آخر في الدنيا. غير أن الإرادة الإلهية قضت بوجود صراع أزلي بين الإيمان وبين الكفر طوال الحياة في الدنيا. ويمكن مشاهدة هذه الحقيقة السافرة عند النظر إلى التاريخ الإنساني منذ آدم عليه السلام حتى اليوم. لذا فما دمنا نريد العيش في دنيا الإيمان علينا ألا ننسى لحظة أننا سنتعرض إلى أذى الكفر وجبروته وتسلطه وخيانته وعدائه. إن عداء الكفر المتأصل ضد الإيمان يدفع جبهة الكفر إلى ممارسة العدوان على المؤمنين بشكل مستمر، يجب ألاّ يحصل لديهم احساس أنـــهم يمشون بين أموات لا يحسون ولا يشعرون بشيء ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة لكي لا يكون لأحد أي عذر عندما يمثل أمام الله تعالى، ولا يستطيع أن يقول: لماذا؟ ولأي سبب؟

وقد يحدث عكس ما عرضناه آنفاً. أي يكون المؤمنون مغلوبين على أمرهم، وتكون دنيا الكفر هي الغالبة. ولكن النتيجة لا تتغير مع هذا. ولا يملك أي طرف من هذين الطرفين أي عذر يقدمونه أمام ربهم، لأن كفاحا ونضالاً معيناً قد تم عيشه وممارسته وفيه هلك من هلك و حيّ من حيّ.

لنوضح الأمر أكثر فنقول: إن الله تعالى جعل الفئتين تلتقيان في موضع لو تواعدتا لاختلفتا في الميعاد، وهيأ مناخ المواجهة وجوها والشروط التي جعلت هذه المواجهة ضرورية. وتم تخطيط هذا الأمر تخطيطاً تجاوز الإدراك الإنساني حتى تم الوصول إلى مرحلة القتال وجهاً لوجه، فظهر بكل وضوح وضع من استحق الحياة عن بينة ومن استحق الموت عن بينة. فتساقط الضعفاء بكل ما يحملونه من حقد ونفور وغيظ وبُعد عن الإستقامة وعن المشاركة في الخير، ولم يبق لديهم أي عذر في هذا. أما الذين لم يقترفوا أي جريمة أو جناية بل قاموا فقط بتأديب من يستحق التأديب في بدر وفي غيره فقد لمسوا أفق الحياة الحقيقية بكل الإطمئنان القلبي والروحي والوجداني.

والخلاصة أن ما جرى في بدر وفي جميع المواجهات من أمثال بدر لم يبق هناك شيء يمكن الحديث عنه خارج التشخيص الصحيح للأمر... لا عند الذين قُتلوا ولا عند الذين عاشوا... لا عند المؤمنين، ولا عند الكافرين... لا عند الفائزين، ولا عند الخاسرين... لم يبق هناك شيء لأن الأمور جرت حسب ما خططه السميع العليم.

opelkandil.com

﴿ وَإِذْ يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾

[الأنفال: ٤٤]

حدث هذا في معركة بدر. فالذين اشتركوا من المسلمين في هذه الحرب لم يكونوا حتى ذلك اليوم قد شاهدوا حرباً حقيقية. ويجب ألاّ ننسى أنهم عندما خرجوا من المدينة لم تكن نيتهم الدخول في حرب، بل تعقب القافلة. لذا فلو رأى المسلمون الأعداء بكامل قوتهم وعددهم لربما خافوا وارتعبوا. ولكن عندما بدأت الحرب و لم يعد هناك أي مجال للتراجع أراهم الله الوضع الحقيقي لاعدائهم، لكي يتوكلوا على الله ويلتجئوا إلى عنايته. ولو دام المسلمون في رؤية أعدائهم قلة لاستهانوا بـــهم و لم يأخذوهم مأخذ الجد، لأن الإنسان عادة ما ينسى العناية الربانية في أوقات الراحة والرخاء والإرتخاء.

من المفيد هنا التعرض لأمر آخر. إن الملائكة الذين ارسلوا للمساعدة في معركة بدر لم يقاتلوا مقاتلة البشر، لأنـــهم أرسلوا من أجل تحطيم الروح المعنوية للجبهة المعادية وتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين. ولو اشتركت الملائكة في الحرب اشتراكاً فعلياً لاختل عالم الأسباب، ولما كان يتاح لأحد الوصول إلى مرتبة "الغازي" ولفترت الهمم واعتمد الناس على العناية الإلهية ومساعدتـــها. أما العناية الإلهية في هذه الدنيا التي هي دار إمتحان فهي تأتي تحت نقاب وتحت ستار.

إن تقليل الله لعدد المشركين في أعين المسلمين قبل بدء الحرب واشتداد أوارها لمنع حدوث أي يأس في القلوب وكذلك لتحقيق التهيئة الروحية والشوق الروحي للشهادة في القلوب... كان هذا هو العناية الربانية الأولى

والرحمة الربانية الأولى. كما كان تقليل عدد المسلمين في أعين الأعداء ضرباً آخر من العناية الربانية. وبذلك فقط تيسر استخدام أصحاب رسول الله ﷺ لبلوغ المرام الإلهي. ثم شاهد كل طرف العدد الحقيقي للطرف المقابل، ولكن القدر الإلهي كان قد بدأ، حيث وجد المؤمنون أنفسهم في خضم الحرب وفي وسطها. وبينما وصل المؤمنون -بعناية من الله وتأييده وبخطة إستراتيجية جيدة للحرب- إلى النصر، ذاق المشركون -البعيدون عن التأييد والنصر الإلهي- مرارة الهزيمة وانقلبوا على أعقابـــهم خائبين خاسرين.

obeikandl.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾ [الأنفال: ٤٥]

من الممكن فهم ما يأتي من "ذكر الله":

١– يشار في هذه الآية إلى أن القلب يجب أن لا تطغى عليه الغفلة أبداً في الحياة العادية واليومية ولاسيما عند الدخول في صراع مع الأعداء. ويجب تنبيه أصحاب القلوب الغافلة إلى هذا الأمر بين الفينة والفينة، فينتبه المؤمن إلى ذكر ربه الذي يجاهد في سبيله بقلبه ولسانه، ويتحول المكان الذي يموت فيه الناس ويقتلون إلى مكان قدسي وإلى معبد.

٢– والذكر في الوقت نفسه صيحة متكررة في الحرب: الله، الله، الله. هذه الصيحة مهمة لأنها تؤثر سلبيا على معنويات العدو، وتزيد من معنويات جبهة المسلمين حيث تبعث فيهم الشوق والحماس. وإذا كان مجرد قولنا اليوم "الله الله" بطرف اللسان يثير فينا الحماس والرعب في صفوف أعدائنا، فخمن إذن ما يستطيعه الذكر الهادر من أعماق القلوب، وماذا يستطيع أن يكسبه للإنسان.

٣– إذا أتينا إلى موضوع أن النصر مرتبط بذكر الله وبالثبات فهو موضوع مهم يجب الوقوف عنده بكل عناية.

إذن هناك أمران يقعان على عاتق المؤمنين الملاقين للأعداء هما:

أ– في حالة الدخول في أي مواجهة حربية –مهما كانت أبعادها الكمية والكيفية– يجب رفع الحالة المعنوية لجبهتنا بإظهار الصبر والاقدام والثبات والعزم، ثم إظهار الجسارة والجرأة –داخل نطاق العقل– لإحداث هزة نفسية وتضعضع وتفكك في الجبهة المعادية.

ب- ذكر الله كثيرا لتمتين حالتنا الروحية والمعنوية وتقويتها، وهز الطرف المقابل بمشهد اللاَّمُبالاة الموجودة لنا عندنا حيال الموت، وربط حركاتنا وسكناتنا بنبض قلوبنا المتصلة بالله.

أجل! لابد أن كل هذا مفاتيح مهمة للنصر. وإلا فانه عند عدم إظهار الصبر والثبات لا يمكن الوصول -حسب السنن الإلهية- إلى الفلاح، كما لا يمكن إدراك النصر في القتال في حالة الغفلة عن ذكر الله. وحتى لو تم ذلك فلا يتم نيل الثواب، أي لا يكون الفلاح الأخروي واردًا في حق أمثال هؤلاء.

إذن فعلى الذين يحاربون ويجاهدون في سبيل الله أن يثبتوا بكل عزم من جهة وأن يتوجهوا لذكر الله من جهة أخرى، وأن يتبرأوا من كل حول وقوة -حتى في أكثر أحوالهم قوة وقدرة- وأن يذكروا الله ويلتجئوا إلى حوله وقوته وأن يكرروا الدعاء الآتي:

"اللّهم تبرأنا من حولنا وقوتنا ولجأنا إلى حولك وقوتك".

opelkandil.com

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ ﴾ [الأنفال: ٧٣]

في الآيــة السابقة "الأنفال: ٧٢" جاءت الآيــة بقرار أن الأنصار والمهاجرين يرث أحدهم الآخر على الرغم من عدم وجود آصرة القربى فيما بينهم. ثم تأتي هذه الآية التي نريد شرحها بحكم أن المسلمين والكفار لا يجوز أن يرث أحدهم الآخر، وأن الكافرين بعضهم أولياء بعض أي يرث أحدهم الآخر. وهناك حديث شــريف يشرح فيه الرسول ﷺ هذه الآية: «وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، قالوا يا رسول الله لِمَ؟ قال: لا تراءى ناراهما».(١)

أي على الرغم من إيمانــهم فإن النار التي يوقدونــها لا تنير، ولا يتميز العالمان المختلفان بعضهما عن البعض الآخر.

نستطيع تقديم التقييم الآتي:

للنار الموقدة في الصحراء أهمية كبيرة من ناحية الاستدلال على الأثر ومعرفة المكان... الخ. وقد يقيّم هذا المثال من زاوية عدم التمييز بين نار العدو ونار الصديق.

إن كان موقدا الكافر والمؤمن -أو منابع الضوء عندهما- معاً، صعب التمييز بينهما، مع العلم أنه يجب أن يكون موقد المؤمن على حدة وموقد الكافر على حدة، لكي لا تختلط الأمور على طلابــهما.

والأهم من كل هذا أن الملحد والمؤمن -خارج نطاق التسامح المتقابل

(١) أبو داود، الجهاد ٩٥؛ النسائي، القسامة ٢٧.

وقبول أحدهما لوضع الآخر- إن بـــهتت الخلافات الأساسية الموجودة بينهما في النواحي الملية والأخلاقية والفكرية غابت الفروق التي يجب وجودها بينهما. ولو استمر هذا الوضع لأصاب التعفن كلا الطرفين، ولاسيما الطرف الذي يرغب بإنشاء وتطوير عالمه الخاص على مكتسباته التاريخية.

كما أن التوارث لا يجري بين المؤمن والكافر من زاوية قانون المواريث بسبب "اختلاف الملتين". ولو قمنا بالتعبير عن هذا بلسان الفقهاء لقلنا بأن اختلاف الدار واختلاف الدين يمنع التوارث. ففي جانب المحبة الإنسانية والتفاهم إن لم تتم المحافظة على تمايز الخطوط، وإذا تم الاختلاط دون أي حساب أو ميعاد وغض الطرف عن بعض المبادئ القانونية نكون -بافعالنا وتصرفاتنا التي رجونا منها الإصلاح- ســـببا في الفتنة وفي الفساد بينما يعدّ اكبر فتنة وفساد هي الفتنة والفساد النابع عن الأعمال التي تمت في الأصل بنية الإصلاح والخير. لأن الشرور الناتجة من النيـــات الحسنة قد تكون لها صفة الدوام، والجماهير غير الواعية عندما تدخل في هذه الدوامة يصعب عليها التراجع.

سورة التوبة

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾ [التوبة: ٢٠]

يرد الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس في القرآن الكريم على الدوام عدا في آية أو آيتين. أجل! يخيل لي أن الإنسان ما دام حياً يفضل ويعز ماله على حياته على الدوام. والحديث الشريف يقول: "من قُتل دون ماله فهو شهيدٌ".[1] وهو بينما يعلمنا حكما معينا، يشير من طرف آخر إلى هذه الجبلة الإنسانية. وما المثل الشعبي عندنا من أن "المال شقيق الروح" إلا تعبير عن الحقيقة نفسها بشكل آخر.

غير أن هناك أناساً تركوا الدنيا قلبياً وليس عملياً أو كسبياً منهم أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ. وهناك أناس لم يملكوا مالاً في الدنيا منذ البداية، في حالة هؤلاء تأتي النفس قبل المال، هذا طبعاً إن لم يصلوا إلى إدراك البديل الحقيقي لها.

أجل! ليس من السهل كما يتبادر إلى الذهن الإيمان وعمل كل ما يقتضيه هذا الإيمان. فالعيش ضمن أحاسيس ومشاعر العادات التي تشكلت وترسخت ضمن سنين طويلة عندما تضاف إليه الفطرة يكون من الصعب جداً على الإنسان التضحية بماله ونفسه. وهاكم سيدنا حمزة ﷺ -عم

(١) البخاري، المظالم ٣٣؛ مسلم، الإيمان ٢٢٦؛ الترمذي، الدية ٢١.

الرسول ﷺ وأخاه في الرضاعة- فقد تردد لبعض الوقت قبل إعلان إيمانه. وبدلا من الغضب على الذين لا يجتازون الإمتحان الصعب في موضوع التضحية بالمال وبالنفس، وهو امتحان صعب بالنسبة للجميع... علينا أن نبدي اهتماما كبيراً بـــهم، وأن نعينهم في الدعاء بظهر الغيب.

أجل!... إن كان الإيمان هو تجاوز العقبة الأولى للشيطان، فإن ترك الإنسان لقومه وقبيلته وأهله وأقربائه والهجرة إلى بلد آخر تجاوز لعقبة أخرى لا تقل صعوبة عن العقبة الأولى. إن القيام بـــهجر الوطن والديار ثم عدم الإكتفاء بـــهذا بل الجهاد في سبيل الله في الموطن الجديد يعد تجاوزا لعقبة صعبة أخرى، ومن يوفق في هذا يكون قد تجاوز نفسه ووصل إلى النجاة.

obeikandl.com

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]

إن جنة عدن كما تبدو في هذه الآية الكريمة وكما وصفت في أحاديث نبوية عديدة،(١) جنة فيها بعض النعم الروحانية ولكن أكثر نعمها جسدية ومادية.

أجل! هناك قسم من الناس تقوى عندهم الرغبات المادية وتغلب عليهم المطالب الجسدية. ولمثل هؤلاء تكون جنة عدن الجامعة لكل النعم مكافاة جيدة. أما البعض الآخر فتقوى عندهم الملكات الروحية لذا لا تعني النعم المادية كالأكل والشرب والحور العين.... الخ شيئا كثيرا، لأنهم يتطلعون للإشباع الروحي وللأذواق المعنوية. لمثل هؤلاء هيئت جنة "الفردوس" وآية ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر﴾ تشير إلى هذه الحقيقة.

ونظراً لتمييز جنة الفردوس فقد أرشدنا الرسول ﷺ في حديث له: "فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس".(٢)

أولا وقبل كل شي فجَنة الفردوس بِبنيتها المخروطية نقطة إشراف ومشاهدة مركزية على جميع الجنات الأخريات. ثانياً: إن لم يكن "الإيمان بالغيب" متوسعا ومتطورا في الأمم السابقة، لذا لم تتطور هذه الأمم في الأمور المرتبطة بالغيب وبالمعاني المجردة ولم تتعمق عندها هذه المعاني. أما

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٢/ ١٥٥.

(٢) الترمذي، الجنة ٤.

الأمة المحمدية فبسبب تعمقها أكثر من الأمم السابقة في موضوع الإيمان بالغيب وبما يتعلق به من أمور فلا تشبع أرواحها إلا بالنعم واللذائذ الروحانية، لذا أوصى الرسول ﷺ أمته بأن تطلب في دعائها جنة الفردوس. أي يمكن القول بأن جنة عدن، هي أفق نعم الأمم الأخرى، أما جنة الفردوس فهي جنة أمة محمد ﷺ.

لا شك أن رضوان الله متحقق لكل من دخل الجنة، ولكن الرضوان الأكبر -الذي يعد أسمى نِعَم الجنة وأعظمها- أفق آخر من الوسعة والشمول والغنى الذي يجعل نائله مستغنيا عن كل شيء، ولن يتيسر هذا إلا لأمة صاحب المقام المحمود وصاحب الحمد. أن تقدم الرسول ﷺ وهو يحمل لواء الحمد والثناء للذات الجليلة ووصوله إلى المقام المحمود، الذي يكون فيه كل شيء تسمعه ويسمعه حمدا وثناء، متناغماً ومتوافقاً مع تشريف أمته المستحقة للفردوس وتكريمها بالرضوان الأكبر.

اللّهم عفوك وعافيتك ورضاك اللّهم وفقني إلى ما تحب وترضى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]

معنى هذه الآية أن الله يطلب الأنفس والأموال الزائلة للمؤمنين مقابل بدائل باقية لا تزول!.. إنه يطلب أنفسهم وأموالهم لكي يعطي لهم مقابلها الجنة في الآخرة. ولكن كما يلاحظ فإن الأنفس متقدمة على الأموال في هذه الآية. ذلك لأن النفس تكون أكثر أهمية في الآخرة ويأتي من بعدها المال المنفق في سبيل الله، والذي زاده هذا الإنفاق قيمة وثمنا. أي انني إن لم أدخل الجنة ولم أستطع الولوج فيها فماذا يعني المال الذي ليس إلا زينة بسيطة من زينات الجنة؟ لذا فالتعبير عن هذه الحقيقة يكون بتقديم النفس على المال هنا خلافا لما جاء في مواضع أخرى.

والحقيقة إن كل ما يبدو أنه ملك مؤقت للإنسان هو في الحقيقة ملك لله تعالى. فمنذ الوجود الأولي للإنسان وكذلك جميع الوسائل الضرورية المهداة لإدامة هذا الوجود ليس إلا لطفاً جبرياً وإحساناً. كما إن إظهار كل هذه الألطاف والهبات وكأنها ملك للإنسان مع منحه صلاحيات قانونية وحقوقية معينة للإفادة منها ليس إلا إحسانا ثانيا. أما القيام بشراء ماله وملكه وكأنه مال وملك خاص في يد صاحبها المؤتمن ليعطَى بدل هذا المال والملك الزائل والفاني ألف ضعف فهو كرم فوق كل إحسان. هو كرم كبير بحيث أننا لو فرضنا عدم وجوده فإن المؤتمنين إما أن يستعملوا هذه الأمانة الموجودة في أيديهم في إتجاه أهوائهم وشهواتهم، فيخونون بذلك الصاحب الحقيقي للمال، أو تزول هذه الودائع وتفنى متى ما جاء أوان هذا الفناء فيخسر هؤلاء أفضل تجارة وأكبر كسب وأكثره بركة.

أجل، عندما يتحقق هذا العقد المتسم باللطف والكرم، يترك الأحياء الفانون أماكنهم ليصلوا إلى الوجود الأبدي. ويزول المتاع الدنيوي الفاني، لتحل محله النعم الخالدة في دار البقاء... ترمى الدنيا ذات العمر القصير تحت التراب، لتخرج سنابل جنات خالدات في عالم أبدي... تترك النفس رغباتـــها ولذائذها بشكل متوازن، لتفوز في المقابل برضا الله تعالى. وفي أثناء تحقيق هذه المبادلة التي تتم ضمن إطار الإرادة الإنسانية الحرة يتم الإعتناء بإظهارها في شكل بيع وشراء أو كأخذ وتحصيل قسري.

إن مثل هذا الميثاق الممتد من الأزل ميثاق بشري وكوني عميق إلى درجة أنه ورد في التوراة وفي الإنجيل وفي القرآن وتكرر في هذه الكتب وتم التأكيد عليه وإن كان في أساليب مختلفة.

openkandil.com

سورة يونس

﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾ [يونس: ١١]

من لطف الله تعالى بنا أنه لا يستجيب بسرعة لأدعية الشر، مع أن ألسنتنا تعودت على أدعية الشر في كل آن على أنفسنا أو على غيرنا أمثال "قاتله الله" أو "ليصبّه الله بالبلاء". ولكن الله تعالى وهو الرب الكريم والحليم لا يتعجل –مثلنا– في قبول هذه الأدعية. ولو تعجل في إستجابة كل دعاء وقبوله لانتهى أمر الجميع في لحظة واحدة. ولكن هناك فترات وأزمنة معينة يستجاب فيها للأدعية فيمكن أن يقول الله تعالى "سأستجيب لكل دعاء في هذه الساعة". أي تكون تلك الساعة ساعة إستجابة لكل دعاء يدعوه العبد آنذاك.

ولا ينحصر هذا في الدعاء القولي فقط، بل يشمل أحيانا الدعاء الفعلي[1] أيضا. أي تدخل الأفعال والأعمال المنفذة في ساعة الإستجابة هذه ضمن إطار الدعاء. لذا يجب الإنتباه إلى هذا على الدوام. والرسول ﷺ ينبهنا ويحذرنا على الدوام عندما يقول: "لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعةً يسأل فيها عطاء

(١) الدعاء الفعلي، هو اتباع العبد للقوانين والسنن الإلهية السارية في المجتمع وفي الكون. مثلا، مَن يبذر الحب يحصد الزرعَ. (المترجم)

obeikandl.com

فيستجيب لكم"[1] ومع هذا فإن بعض المعارضين للأنبياء ولخلفائهم وورثتهم قالو لهم في مجال التحدي والإنكار:

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢). أو يرددون عبارات من أمثال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٤٨؛ الأنبياء: ٣٨؛ النمل: ٧١)

وقد يدعو بعضهم في لحظة مؤقتة من لحظات ضيقهم وغضبهم، وبعد نفاد صبرهم على أعدائهم المعتدين عليهم والظالمين لهم. بينما يشرع الله تعالى بمعاقبة هؤلاء المعتدين الظالمين عندما يحين الوقت المناسب. لذا كان على المؤمنين أن يصبروا ويصروا على أسنانهم أمام المصائب والبلايا المؤقتة. وعندما يدعون، عليهم أن يدعوا لرفع البلاء، وأن يفوضوا أمر عقاب أعداء الدين والإيمان إلى علام الغيوب، وألا يستعجلوا ولا ينفد صبرهم في أمر إيقاع هذا العقاب والجزاء بـــهؤلاء. لأن الله تعالى لو شاء لعجل لهم العقاب، أو يؤجله حسب عظم الجرم الواقع وحجمه، أو يؤخر عذابه الأليم إلى يوم القيامة، أو ييسر لهم سبل الهداية فيهتدوا ويصبحوا إخوانا لك.

لذا يجب على المؤمن ألا يدعو بالشر على أحد، بل يكون شخصا محتاطا ويقف باحترام وتوقير أمام حكم الله وقضائه حتى يطفح به الكيل ولا يبقى مجال للصبر عليه. وعليه أن يدعو على الدوام:

يا قاضي الحاجات، يا دافع البليات إقض حوائجنا وادفع عنا البلايا

يقول هذا ويشكو حاله وعدم قدرته على مزيد من التحمل إلى ربه ومولاه.

(١) مسلم، الزهد ٧٤؛ سنن الدارمي، الوتر ٢٧.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

[يونس: ٨٧]

نستطيع فهم ما يأتي من آية ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾:

جعل البيوت متجهة نحو القبلة، أي نحو الجنوب، وبذلك تحل مشكلة أشعة الشمس وحرارتـــها أيضا.

جعل البيوت ملائمة لمهمة المساجد، فمن جهة تم التأكيد على:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (النور: ٣٦). ومن جهة أخرى تمت الإشارة إلى بيوت تقوم بأداء مهمات ووظائف هامة.

إذا تناولنا موضوع صدور الأمر بإتخاذ كل بيت قبلة ومسجدا نفهم وجوب إتخاذ كل إنسان البيت الذي يسكنه معبدا، ويجعل نفسه عابدا دائما فيه ويحيي بيته بالعبادة، ولا يجعله كالقبور الخالية من الحياة.

صحيح أن الآية تبدو وكأنـــها توصية خاصة بموسى وأخيه هارون عليهما السلام ولكن الآية تقوم بعد ذلك بتوصية عامة ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أي إن كانت الظروف والشروط غير ملائمة ولا تسمح بالعبادة العلنية فاجعلوا بيوتكم معابد سرية. أو عليكم أن تقيموا معابد لذكر الله تعالى في كل حال من الأحوال.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

[يونس: ٨٨]

قام بعضهم بتفسير ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ كما يأتي:

يارب أأعطيت فرعون وملأه زينة وثروات وأموالا لكي يضلوا عن سبيلك؟ ولكن هذا المعنى ليس تاماً.

اللام في ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ هو "لام العاقبة" وموسى عليه السلام أفضل من يعرف أن الله تعالى أعطاهم هذه الأموال الطائلة لغاية سبحانية وأن العاقبة التي سينتهي إليها أعطاء هذه الأموال عاقبة معلومة. لذا يتساءل موسى عليه السلام: أأعطيت لهم هذه الأموال لكي يضلوا الناس عن سبيلك؟ صحيح أن الله تعالى لا يحب الكفر والضلال والمعصية ولا يريدها، ولو فرضنا العكس لكان معنى هذا أن هؤلاء عندما يقترفون هذه الأمور يكونون قد أطاعوا الله. بل يبدو وكأن إرسال الأنبياء قد تم من أجل هذا الغرض. ولكن الأمر ليس كذلك أبدا فهناك الكثير من الآيات في القرآن الكريم فيها "لام العاقبة" مثل: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً﴾ (القصص: ٨)

ولو لم نفهم الآيات بـــهذا الشكل لكان معنى الآية أعلاه أن فرعون التقط موسى عليه السلام لكي يكون لهم عدوا ومصدر حزن. وهذا تفسير غير مقبول.

ثانيا: لكون القدر متعلقا بكل من السبب والنتيجة، تمت الإشارة هنا

فقط إلى النتيجة المتعلقة بإرادة الله دون الأخذ بنظر الإعتبار هنا رغباتهم وإرادتهم. بينما أصل المسألة هو أنهم وجهوا إرادتهم النسبية المكتسبة وجعلوا أموالهم وأولادهم وسيلة إضلال وإفساد وكفر. أي أن ماملكوه من أموال أصبحت وسيلة لسوء عاقبتهم. ولكن كان من الممكن اعطاء الإرادة الإنسانية حقها. أي أنهم بدلا من طلب الهداية قاموا بطلب الضلالة قولا وعملا، فخلق الله تعالى مايريدون وما يطلبون. أو أن المال والولد يمكن أن يكونا طريقين إما إلى الجنة أو إلى جهنم. أما هؤلاء فلم يفكروا في الإحتمال الأول "أي إحتمال الجنة" فانقلبت النعمة إلى نقمة. وعندما يقف شخص فقير مثل موسى عليه السلام أمام فرعون صاحب الأموال والأولاد والأتباع، وتعمل كل عوامل الكبر والغرور والطغيان والإنحراف عملها فالنتيجة معلومة، وطريق الضلال يبقى هو الطريق الوحيد أمامهم. والنبي موسى عليه السلام يدرك هذا لذا فهو يعلم النتيجة المحتومة لوجود المال والولد والعاقبة التي لا مفر منها إن لم تسعف الإنسان رحمة الله ورحمانيته.

أما هلاك الأموال وطمسها: يجوز أن جميع الأموال التي كانوا يملكونها قد هلكت، أو أن الله تعالى أعطاهم الأموال وزينة الدنيا، ولكن لم يعطهم إمكانية الإستفادة منها. لنفرض مثلا أن غنيا مصاب بالداء السكري فهو لا يستطيع أكل وشرب مايشتهي. وفي مثل هذه الحالات يكون وجود النعمة أو عدم وجودها سيان. وبهذا المعنى لا يكون هلاك الأموال هلاكا حقيقيا بل مجازيا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: ٩٠]

ورد في بعض الأحاديث بأن كل إنسان سيدرك الحقيقية واضحة جلية لا محالة قبل موته. أي يمكن القول بأنه لن ينتقل إلى دار الآخرة شخص لم يؤمن. ولكن الإيمان بعد مرحلة معينة لن يكون مفيداً. وهكذا كان إيمان فرعون من هذا النوع الذي جاء بعد فوات الأوان. أجل!.. لقد قال فرعون: "آمنت.." ولكنه قال هذا في وقت لم يعد هناك فيه أي فائدة عملية. لذلك نرى في دوام الآية سؤال: "آلئن؟" وهو أوجز تعبير لإيضاح هذا الأمر أي: آآمنت الآن؟ أتبادر هذا إلى عقلك الآن بينما: "وقد عصيت من قبل"؟ ونفهم من الإستفهام: "آلآن؟" إنه كان عاصيا حتى اللحظة السابقة لقوله هذا... لقد كنت عاصيا عندما هيأت حصانك وجيشك لتعقب موسى عليه السلام. ولو قلت آنذاك بأنك آمنت ورجعت وارجعت جيشك لوجدت فرصة العيش كعبد صالح. ولكن فات الآوان.

والخلاصة إن الله تعالى لم يمنع إيمان عبد توجه نحوه، و لم يمتنع عن قبول هذا الإيمان. كل ما في الأمر هو أن آوان التوبة كان قد فات وانقضى. وهذا من أسلم طرق تقييم الآية وفهمها.

هل قال فرعون بلسانه وهو يغرق بانه آمن؟ أم خطر ذلك على قلبه آنذاك؟ حسب عقيدة أهل السنة والجماعة فإن مجرد ورود خاطر التوبة بشكل صحيح وفي الوقت الصحيح يعد تلفظا. بل إن التلفظ يعد ظرفا للمعنى المظروف داخل قلب الإنسان. غير أن فرعون حسب آية أخرى كان قد فاتته الفرصة: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ (المؤمن: ٨٥) أو

أنه قال هذا ليخلص نفسه من ذلك الوضع الحرج. لذا نجاه الله ببدنه ليكون عبرة للعالمين. وعدا هذا فإن فرعون وهو في تلك اللحظة الحرجة الرهيبة لم يلتجئ إلى الله تعالى وإلى الذات الجليلة الموصوفة له من قبل موسى وهارون عليهما السلام، بل قال بتعبير فج بأنه آمن بما آمنت به بنو اسرائيل. أي توجه نحو فهم لا يزال ضبابيا في إدراكه لمفهوم الإيمان عند بني إسرائيل فهو حتى في إيحائه الذي جاء متأخراً لم يصب حقيقة الإيمان.

وإذا نظرنا إلى التاريخ رأينا أن فرعون كان دهريا ويجوز إن نقول أنه كان "مادي النظرة". والإيمان السريع الفجائي يكون صعبا عند أمثال هؤلاء. هذا علما بأن شرط الإيمان الصحيح إن كان الإيمان بنبوة موسى عليه السلام والتصديق به إلى جانب الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له، فإن إيمان فرعون في تلك اللحظة الحرجة لم يكن إيمانا كاملا خالصا بل كان يرتكب كفراً وهو يقول بأنه آمن.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

[يونس: ٩٨]

كشف العذاب عن قوم يونس:

١– قد تكون معاملة خاصة من قبل الله لهذا القوم لم يعامل الله بها قوما غيرهم من قبل ولا من بعد.

٢– قد تبدو أمارات قدوم البلايا ووقوعها بظهور أسبابها، ولكن عمل خير وبر ومعروف ما في تلك الأثناء يكون سببا وعاملا في رفع غضب الله وعذابه. وعندما رأى قوم يونس أمارات العذاب، رجعوا إلى أنفسهم وتوجهوا إلى الله وأعلنوا توبتهم وإنابتهم إلى الله. وفي رواية ضعيفة أنهم بدأوا بقول وتكرار "سبحانك لا إله إلا أنت إنا كنا من الظالمين". وحسب بيان أحد المتقين –بطريق الكشف وليس بطريق الرواية– فقد كان تسبيحهم وتحميدهم وتكبيرهم وحوقلتهم هي: "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله" فدفع الله تعالى عذابه عنهم ومتعهم حتى حين ووهبهم حياة فيها مكان ونصيب للإستعداد للآخرة.

٣– وحسب العادة السبحانية لله تعالى فالله تعالى يأمر نبي أي قوم كتب عليهم العذاب مغادرة بلدته. ولكن يونس عليه السلام ترك بلدته بإجتهاده الخاص قبل أن يأتيه أمر المغادرة. لذا فكأن العتاب الموجه من الله تعالى لهذا النبي الكريم –بشكل مناسب وملائم لمقام نبوته– كان هو السبب الكامن وراء كشف العذاب عن قومه تماماً مثلما تمتص مانعة الصواعق خطر الصواعق، ثم تتابعت الحوادث التي جابهها والتي يعلم الجميع تفاصيلها.

وكلمة "هلاّ" الواردة في القرآن مرادفة لكلمة "فلولا" وتأتي بمعنى: "يا ليت" وتكون خلاصة معنى الآية "ياليت كانت هناك قرية آمنت قبل رؤية العذاب ونفعها ايمانها من بين القرى التي أهلكناها" وفيها معنى ضمني لتشويق التوبة والرجوع إلى الله والإنابة إليه قبل وقوع العذاب، أو حالما تظهر علامات وقوع العذاب أو إقبال البلايا.

وكون هذا القوم قرب مدينة الموصل وفي قرية نينوى، ليس مهماً ولا يغير من جوهر الحقيقة أو نتيجتها. فالمهم هنا التقييم الصحيح للتقديرات الإلهية والنبوية، وتفسير الأمارات والإشارات التي ينير طريقها "تأويل الأحاديث"، والعيش في يقظة وإنتباه ضد جميع الأخطار المحتملة والتوجه نحو الله في جميع الأحوال: ربنا أرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه. وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا إجتنابه.

obeikandl.com